

هكذا مات سقراط

للسان محمد علي مصطفى

أيها الأُتُفُيُوه :

ليت شعري ماذا ترك الذين اتهموني من الأثر في نفوسكم ! فلقد جعلوني أنسى نفسي ، لاعتمادهم على زخرف القول ، وتنميق الكلام ، ولكن الحق لم يجر لهم على لسان ، وأعجب أكاذيبهم عندي أنهم يقولون : « إني متكلم ماهر » ولست أدري ماذا يقصدون إلا إذا أرادوا أني لأخشى في الحق أومة لائم ، وفي هذا أوافقهم . لقد جاء الذين اتهموني بالإفك ، ولكنكم ستسمعون مني الحق الصراح .

أيها الأُتُفُيُوه :

إنكم إن تسمعوا مني خطبة مزمقة ، أو كلاما يأخذ حسنه بالألباب ، ويسحر العقول ، فإني أرتجل القول أرتجالا ، معتمدا على أن الحق نصير نفسه لا يليق برجل مثلي بلغ من الكبر عتيا ، أن يقف أمامكم ، ويخضعكم بقوله ، كما يفعل الشبان . لا تقطعوا على الكلام ، ولا تعجبوا إذا تكلمت فيكم كما أتكلّم في الأسواق وعند الصيارفة ، فإني أقول الحق .

لقد جاوزت السبعين من العمر ، وهذه أول مرة أقف فيها أمام القضاء ، وليس لي علم بلغته ، ولو أتى كنت غريبا لا جزتم لي أن أتكلّم بلغة قومي ، والذي أرجوه منكم ألا تعولوا على أسلوب البيان ، فقد يكون جيدا أو رديئا ، ولكن وجهوا عنايتكم إلى معنى ما أقول ، وتأملوه لتعرفوا إن كان حقا ، أو باطلا ، وهذا واجب القاضي العادل ، كما أن واجب المحامي أن ينزه لسانه عن قول الباطل ، ويستمسك بالحق .

أبرها الأتفيوه :

إني أبرئ نفسي من كل مانسبوا إليها ، بالرغم من إصرارهم على دعواهم ،
وتهاديهم في باطلهم ، ومحاولتهم إقناعكم بأن سقراط ، الرجل الحكيم ، يفكر
في ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شيء ؛ ليحق الباطل ، ويبطل
الحق ؛ وإني لأخافهم فإن كل من سمعهم يعتقد أن كل من يفكر في العالم لا يصدق
بوجود الإله .

أبرها الأتفيوه :

لقد كثر حسدى ، ودفعتهم الكراهة والبغضاء إلى اللجاجة والعناد ، ولست
أعرف واحدا منهم ، حتى أختصم معه أمام القضاء ، وأناقشه الحساب ، فأقرع
الحجة بالحجة ، وأدمغ الدليل بالدليل . وما أنا إلا كمن يحارب الأشباح ، أو
يسأل الموتى . إن الذين اتهموني فريقان : ميلتس وشيعته ، وشيوخ معمر
طالت صحبتهم للحياة ، وعرفوا الأيام حلوها ومرها ، وسأبدأ بتفنيد مزاعم
هؤلاء . سأدافع عن نفسي في هذا الوقت القصير ، ضارعا إلى الله أن يكتب لي
النجاح ، وأن يرشدنا إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، فإنه ولي التوفيق !

على هذا للنحو من الأسلوب الرائع يسير سقراط في الدفاع عن نفسه
أمام المجلس رابط الجأش ، مطمئن القلب ، لا يبالي بما يؤول إليه أمره ؛ يلجأ
إلى المنطق تارة ، وإلى قوة البيان تارة أخرى ، يلين ويرق في قوله حتى يظن
أعداؤه أنه استكان ووهنت قوته ، ثم يعصف ويدوى صوته في الأرجاء ،
ويجلى حجته عنيفة دامغة ، ساخرا من خصومه ، مستهزئا بأعضاء المجلس ،
إلا عددا قليلا منهم ، استمدوا منه العلم ، وكانوا من أتباعه ومريديه .

بهذا الأسلوب القوي العنيف ، اللاذع الساخر ، دافع الحكيم عن نفسه ،
فأغضب السامعين ، ودفعهم إلى الحكم بإدانته . فتلقى حكمهم رضى النفس مؤمنا
بالقدر خيره وشره ، مطمئنا إلى تلك الحياة الروحية التي تتمتع بها الروح ، بعد

انفصالها عن الجسد .

يودع سقراط السجن إلى أن تحين منيته، ولكنه لا يجبن ، ولا تخور عزيمته، ولا ينسى رسالته التي أمر بتبليغها، فكان تلاميذه يقدون إليه فيحاورهم في كل شيء، وينتهي من حوارهم معهم إلى تقرير الحقائق
مرت الأيام، واقتربت الساعة، ودنا الأجل، وفكر تلاميذه المخلصون في أن يهثوا له سبيل الفرار من سجنه، والنجاة من الموت، ولكنه لامهم وعنفهم، فخضعوا له على مضض، في نفوسهم، ولوعة بين جنوبهم.
اقرب الأجل واشتد شغف التلاميذ بأستاذهم العظيم، وزاره واحد منهم بكرة يوم، فخرى بينهما الحديث الآتي:

سقراط — لقد حضرت مبكرا فما الذي جاء بك؟

التلميذ — لقد عجلت بالحضور إليك.

س — عجبا للسجان يسمح لك بالدخول في مثل هذا الوقت.

ت — طال ترددي عليه فعرقتي، وأدبت له بعض الخدمة.

س — هل مكثت هنا طويلا؟

ت — نعم.

س — لم جلست صامتا ولم توقظني من نومي؟

ت — وددت لو زال عني ذلك الهم، وفارقتي الحزن، وإني لأعجب من

أمرك كيف تنام ملء الجفون! ولقد عز علي أن أقلقك في مضجعك. وكثيرا

ما فكرت في أمرك، وغبطتك على ذلك المزاج السعيد الذي وهبه الله لك، فإنك

تقابل هذه المصيبة التي ابتلاك بها الزمان، ونكبتك بها الدهر بحميل الصبر.

س — إن رجلا مثلي تقادم عهده حتى اشتعل رأسه شيئا جديرا لا يغضب

إذا علم أنه ميت لا محالة.

ت — لقد رأيت شيوخا طعنوا في السن، ولم يقنعهم طول صحبتهم للحياة

عن الغضب وشكاية الدهر وذم القدر وما تأتي به الأيام وتلده الليالي.

س — حقا قلت، ولكن خبرني ما الذي جاء بك ؟

ت — إني أحمل إليك أخبارا مرة، وأغلب ظني أنك لن تشعر بمرارتها،

أما أنا وسائر أصدقائك فوجدناها مرة محزنة، وإني لأكثرهم حزنا وأشد هم أسي.

س — نبئني هل حضرت السفينة من ديلوس ؟ إن وصولها رسول موتي.

ت — لم تصل بعد . ولكن جاءت الأخبار الدالة على أنها ستكون هنا

اليوم ، وفي غد تنتهي حياتك .

س — أضرع إلى الآلهة أن تكون نهاية شريفة . وإني لأعتقد أن السفينة

لا تصل اليوم .

ت — من أين لك هذا الاعتقاد ؟

س — هاأنذا أنبئك . سأموت في اليوم التالي لوصول السفينة .

ت — نعم .

س — ولكن السفينة لا تصل اليوم بل غدا .

ت — كيف علمت هذا ؟

س — هذا ما يوحى إلى به حلم رأيته في أخريات الليل ولذلك كان من

حسن الحظ أنك لم توقظني .

ت — ما هو ذلك الحلم ؟

س — لقد رأيت كأن فتاة جملة كاملة في ملابس بيضاء تدعوني ، وتقول :

ياسقراط، إنك ستموت في اليوم الثالث من هذه الرؤيا .

ت — هذا حلم غريب . فهل لك أن تنبئني بتأويله ؟

س — إنه جلي واضح ، لا يحتاج إلى تأويل .

ت — قد يكون ذلك . ولكنني أضرع إليك ، ياسقراط، أن تصغي لنصحي

وتنجو بنفسك ، فإن موتك سيكون كارثة لا طاقة لنا على حلها . وأى رزية أشد ، وبلية أعظم من أن يصاب الإنسان في صديقه الفرد ؟ وإني لأخشى أن أتهم بالتقصير في حقك ويقال عني : « إنه لو أتفق ماله لنجاه » وليس أشنع من أن يرمى الرجل بأنه يؤثر ماله على صديقه . وله عليه حق وحرمة ، ولن يصدق الجمهور أن رغبتنا في نجاتك خالصة ملحة .

س — أيها الصديق المبجل ! لم تهتم برأى العامة ؟ إن المفكرين الذين تهتم برأيهم ، ونغنى بكلامهم ، سيعتقدون أننا فعلنا كل ما في وسعنا .

ت — أأست ترى من الضروري أن تهتم برأى العامة ؟ إن جميع ما حصل لك يدل جليا على أن العامة يستطيعون أن يمسكوا الإنسان بالأذى ، ويلحقوا به أعظم ضرر إذا اتهم عندهم .

س — حبذا لو كان العامة يستطيعون ذلك ؛ لأنهم لو ملكوا الضرر لملكوا النفع ، ولكنهم لا يملكون ضرا ولا نفعاً ، وإنما هم يميلون مع الأهواء ، ويتبعون كل ناعق .

رفض سقراط الحكيم أن يصغى لنصيحة تلاميذه المخاضين ، وآثر الموت على الحياة ، حتى لا يسجل على نفسه الجبن ، والرضا بأن يعيش في غير وطنه ذليلاً مطأطأ الرأس . ولماذا يخاف الموت ، والسعادة لن تنهياً له ، إلا إذا فارقت روحه جسده ، وفرت من ذلك السجن المظلم ، الذي يحول بينها وبين السموات إلى عالم الآلهة ؟

جاءت السفينة من ديلوس ، تنذر بدنو أجل ذلك الفيلسوف العظيم ، فاشتد حزن أصدقائه عليه ، وتمكنت اللوعة الممضة من نفوسهم ، ولكنهم غالبوا الوجد وكنتموا تلك النار المشتعلة بين الجوانح . وأشرق شمس ذلك اليوم البغيض ، وسارع أصدقاؤه المخاضون إليه ، وحضرت زوجة ، وأبنائه وقربيات

له ، فمكث معهم مدة ، ثم صرفهم عنه حتى يموت هادئاً .

مالت الشمس للمغيب شاحبة الوجه ، مصفرة اللون ، ثم اختفت وراء الجبال ، ودخل القيم ينذر سقراط بدنوا الأجل ، وعلى وجهه أمارات الحزن المبرح ، « وقال : يا سقراط إننى أعلم أننى لن أجذك أخرق كغيرك من الناس : إنهم يغضبون منى ويلعنوننى حين أمرهم بشرب السم ، وليس لى فى ذلك ذنب ، وإنما أنا أداة فى يد أصحاب السلطان ، ولقد وجدت فىك طول مقامك هنا ، ذلاً ورفقاً وعظمة لم أجدها فى سواك ، وأشهد أنك أعظم رجل جىء به إلى السجن » ثم يولى عنه وجهه خشية أن يرى الدموع تترقرق فى عينيه ، ويقول : الوداع يا سقراط ، إنك ستحمل قضاء الله فى رضا وجميل صبر ، وأنت تعرف لما إذا جئت » ثم ينصرف ويخرج من الحجرة فى وله وشدة لوعة واسترسال دمع . وماهى إلا لحظات حتى يعود القيم وفى يده كأس مترعة بالسم الزعاف ، فيتناولها منه سقراط فى هدوء نفس وثبات جنان ، ويتناولها فلا يبقى فيها بقية ، ثم يستلقى على ظهره فيسرى السم فى جسمه وتتخاذل أطرافه قليلاً قليلاً ، وبعد برهة يقف القلب عن الحركة ، ويكشف عن وجهه فإذا كل شىء فيه قد تبدل ، وإذا آثار الموت فى ملامحه : فى شحوبه ، فى فمه المفوح ، فى عينيه الواسعتين تنظران لا إلى غاية . وعند ذاك تقدم تليذه وأقرب المقربين لديه ، قريطون ، فأطبق فمه ، وقارب بين جفونه ، ثم أعاد الغطاء ، وإذا ذاك ضج الحاضرون بالعويل والبكاء .

وفى هذا يقول صاحب كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء »

« فلما رأيناه قد شربها رهقنا من البكاء والأسف ما لم نملك معه أنفسنا ، وعلت أصواتنا بالبكاء فأقبل علينا يلومنا ويعظنا ، ثم قال : إنما صرفنا النساء لئلا يكون مثل هذا ، فأما الآن فقد كان منكم أعظم ، فأما أنا فسترت وجهى وكنت أبكى

بكاء شديدا على نفسه إذ عدمت صديقا مثله، ثم سكتنا استحياء منه، وأخذ في التردد.
 هنيهة، ثم قال للرجل: قد ثقلت رجلاي فأمره بالاستلقاء وجعل يحس قدميه ثم
 غمزها فقال له: هل تحس غمزي؟ قال: لا. ثم غمز غمزا شديدا فقال له: هل تحس
 غمزي؟ قال: لا. ثم غمز ساقيه وجعل يسأله ساعة بعد ساعة هل تحس فيقول لا
 ورأيناه يحمد أولا فأولا. ويشد برده حتى انتهى إلى حتويه ثم غمز فلم يحس
 بذلك فكشف عنه، وقال لنا: إذا انتهى هذا البرد إلى قلبه قضى عليه... فهذا خبر
 سقراط صاحبنا الذي لا نعلم أحدا في دهرنا من اليونانيين كان أفضل منه »

محمد علي مصطفى